الفصل الأول

الجبهة الشرقية

في خندق به مدفعية آلية، رقد "غريب سلطان" على بطنه مادا عنقه إلى الأمام ليستطلع العدو بين ثنايا العشب المحيط ... إذ تلقى أوامر من رؤسائه بتولى مهام الدفاع عن إحدى "الجبهات الأمامية" للجيش الأحمر على أطراف مدينة "خاركوف" الأوكرانية٣ ... كان ذلك فى أيار/مايو ١٩٤٢ حين عمد الألمان إلى شن هجوم مضاد، فاشتعلت الأجواء قرع القانفات ودمدمتها وهدر المدرعات وقعقعتها. وشرع سلطان، ذو التسعة عشر ربيعا، يوجه منظاره الميدانى يمنة ويسرة مستطلعا السهوب الأوكرانية دون أن يرى شيئا لافتا، فأسقط فى يده.

عندها ... أجال سلطان فكره كسيفا ليتذكر كيف آلت به الحال هاهنا. لقد كان فردا ضمن إحدى الأقليات بالاتحاد السوفييتي إبان حكم ستالين ... تترياً من "ستيرليتاماك" ببشكيريا[٤]، ذلك الإقليم الذى استقرت به الشعوب الطورانية فى آخر موجات الغزاة "الرحل" من آسيا الوسطى على يد "جنكيز خان" فى القرن الثالث عشر الميلادى. ومع المد الروسى، فقد التتريون استقلالهم، ليصبحوا أحد الشعوب "غير الروسية" العديدة التى تمثل قرابة نصف تعداد سكان البلاد.

وإبان الحكم السوفييتى، ازدادت وطأة قمع تلك الشعوب، وبخاصة من على شاكلة والد سلطان ووالدته ممن امتلكوا وأداروا مشاريع تجارية صغيرة الحجم. إذ أطلقت عليهم الكوادر السوفييتية لفظة "الرأسماليين"، وجردتهم من جميع ممتلكاتهم. هذا، وقد عمدت تلك الكوادر إلى "تأميم" مشروع والد سلطان، وكان مشروعا للنقل والمواصلات، إلى جانب قيامهم بمصادرة بيت العائلة، حتى أن

الفَرس المملوك للعائلة لم يسلم من أيدى السوفييت. أما العائلة، التى كانت ميسورة الحال آنفا، فقد استطاعت الاحتفاظ بقطعتى أثاث كانت قد جلبتهما خلال رحلة لها إلى بريطانيا، ولم تكن القطعتان سوى "مرآة" صارت مشروخة، و"منبه" أضحى مهشما!! هذا، وقد عمد الأب، قبيل وفاته، إلى تشجيع ابنه على الانضمام لعضوية منظمة الطلائع – "طلائع لينين"، ثم اتحاد الشبيبة الشيوعية – "الكومسومول"، فالحزب الشيوعى لاحقا. فوفقا للأب، فإن ذلك كان هو السبيل الوحيد للنجاة فى ظل الحكم الستالينى. وبالفعل، فقد أذعن "سلطان" لنصيحة والده، فالتحق بالكومسومول، وانضم إلى صفوف المدرسة العليا وكان تخطيطه أن يدرس "علم المعادن" ... وبذل جهده لكى يضحى "مواطنا سوفييتيا".

ثم جاء حزيران/ يونيو ١٩٤١ ... وجاء معه الغزو الألمانى. حينها ... لم يكن الجيش الأحمر قد أضحى تلك الآلة العسكرية الهائلة التى ستنجح – لاحقاً – فى

تدمير جانب كبير من الجيش الهتلرى. فخلال السنة الأولى من الحرب الكونية الثانية، منى الجيش الأحمر بإصابات وخسائر عديدة، وانسحب متقهقرا من أراض شاسعة. لذا، فقد تم استدعاء كل فرد متاح وتكليفه بمهام قتالية على الفور. وتم تجنيد "سلطان" إجباريا، وإلحاقه بجماعة مكونة من أمثاله من "غير الروس" ... جماعة هزيلة العتاد رديئة القياد، صدرت لها الأوامر بانتشار أفرادها حين ملاقاة العدو.

وحين أخذت الوحدة العسكرية التي ضمت "سلطان" موقعها خارج "خاركوف"، شعر "سلطان" شعورا طاغيا كونه أحد أفراد "أقلية" ما، وما لذلك من دلالة دونية. وحين اصطف أفراد الوحدة لأغراض التفتيش، أمر القائد – وكان روسيا – كل من ينتمى إلى أقلية ما بأن يتقدم خطوة إلى الأمام، ليلى ذلك قيامه بتكليف أربعة منهم، من بينهم "سلطان"، بالمهمة الانتحارية المتمثلة فى التسلل إلى المنطقة المشاع غير الآهلة التى تفصل الجيشين المتحاربين أحدهما عن الآخر، وإلقاء منشورات كتبت باللغة الألمانية باتجاه صفوف العدو. ووفقا للمخطط "الدون كيخوتى" هذا، سيقوم الجنود الألمان بقراءة ما حوته المنشورات، والتمرد بوجه قوادهم والانسحاب. ولم يكن أحد ليتوقع أن الألمان قد قاموا بزراعة أسلاك شائكة. أما جماعة "سلطان" فقد قُطعت إربا تحت وابل قصف المدفعية الألمانية، ولم ينج منهم أحد سوى "سلطان" الذى عمد إلى الاختباء ليومين داخل الحشائش المرتفعة فى السهوب، ليزحف عائدا أدراجه، وتقديرا لبسالته وشجاعته وعده قائده بتقليده وساما. بيد أن سلطان قد استشعر أن هذا الشرف ما هو إلا شرف أجوف، إذ أخذ ولاؤه للنظام السوفييتى يتضاءل – ذلك النظام الذى حاول مخلصا المساعدة فى تدعيم أركانه وتمديد رقعته.

تلا ذلك أن أُمرت "الوحدة" أن تأخذ أهبتها للتصدى للهجوم الألمانى، حيث لمس

"سلطان" -ثانية- وحشية النظام الستالينى ... إذ أجبر القادة السوفييت سجناء المعتقلات ومعسكرات العمل الإلزامى على حفر خنادق مضادة للدبابات دون تأمين أدنى حماية لهم من قصف النيران الألمانية. وفى أثناء إحدى فترات الراحة تحدث سجين عجوز إلى "سلطان"، وكان تتريا مثله. لقد أخبره ذلك السجين الهزيل الضعيف كيف حارب خلال الحرب الكونية الأولى حيث أوقعه الألمان فى الأسر. وأردف العجوز قائلا إن الحياة فى معسكرات الأسر الألمانية كانت خيرا من الحياة فى صفوف الجيش القيصرى وأخف وطأة، لدرجة أن الأسرى قد حاربوا ضمن صفوف الألمان فى قتالهم للروس. وفيما كان العجوز يقص روايته، أرهف "سلطان" السمع ثم عاد للعمل من جديد. أما القادة فقد كانوا قد انتهوا للتو من انتقاء بعض الجند لتحصين عدة مواقع من جبهة المواجهة. وهنا ... راود "سلطان" شعور بأن الجنود المنتمين إلى الأقليات هم من اختيروا لأكثر المهام صعوبة وخطورة ... مهام كان إحراز النصر فيها أقرب إلى حلم بعيد المنال، بيد أنه رجع إلى موقعه كالا مجهدا.

كان "سلطان" مستلقيا فى حفرة إلى جوار جندى ينتمى إلى إحدى الأقليات حيث اتخذ الأخير وضع الاستعداد. وكانت لسلطان إمرة شكلية صورية إذ قد خدم سابقا فى اتحاد الشبيبة الشيوعية، بيد أنه لم يكن يملك أدنى معرفة عن كيفية مجابهة الدبابات وإيقافها باستخدام المدفعية الآلية، أو أدنى إدراك لمغزى الدفاع عن قطعة أرض بعينها ضمن جبهة قتالية تتغير باستمرار - مهما كان ثمن التضحية المرتبطة بدفاع كهذا. هنا ... وضع سلطان منظاره الميدانى لبرهة قصيرة ليصيخ السمع ... إذ تنامت إلى أذنيه أصوات طلقات نارية تقترب باتجاهه، إلا أنه لم ير أية تحركات قط.

وفجأة، وكلمح بالبصر، انشقت الحشائش المحيطة عن فرقة من الجنود الألمان

ما جعل رفيقه يتأرجح قليلا فى الوقت نفسه الذى اندفعت خلاله جماعة ألمانية أخرى من الجهة المقابلة ... وبهت السوفييتيان فأضحيا مشدوهين، إذ لو فتحا نيران مدفعيتهما صوب إحدى الجماعتين، لقامت الأخرى بتمزيقهما إربا فى التو ... هو موت "بطولى" إذا ... موت خال قادة "سلطان" جنودهم ملاقيه. أما "سلطان" فلم يكن لديه إلا ثوان معدودات تحدد مصيره.

"كلا ... أمسكوا عن هذا"، صيحة جأر بها قائد الفرقة الألمانية مدوية حين أقعى رجاله متقاطرين وشرعوا فى التصويب تلقاء العدو ... "تراجعوا ولا تطلقوا النيران". عندها أضحى "سلطان" حائرا يترقب، إذ طافت بمخيلته مشاهد العبودية فى معتقلات السوفييت، وكذا ذكرى عائلته التى أبعدت عن بيتها قسرا، فاستشعر أن الحرب ليست حربه، إذ ليست النائحة كالثكلى... لذا، فقد قام ورفيقه برفع أياديهما استسلاما ... لقد أصبحا أسيرين.

"أطلقوا النيران عليهما" ... صيحة أخرى أرسلها عديد من الألمان، وكان أمرا كثيرا ما يحدث ... فالجبهة الشرقية قد اتسمت بالوحشية، فضلا عن تجاهل طرفى القتال البروتوكولات الدولية الخاصة "بأخلاقيات الحروب".

وخلال تشاور الجنود وجدالاتهم، تقدم ضابط ألمانى باتجاه الأسيرين فاستشعر "سلطان" مخرجا، إذ كان قد تعلم قدرا يسيرا من الألمانية فى المدرسة العليا، فقرر مخاطبة الضابط بها.

"سيدى، إنك رجل متعلم ... ما دراستك؟"، سؤال افتتح به "سلطان" حديثه إلى الضابط الذى دهش أن يتحدث جندى سوفييتى الألمانية، فأردف باسما : "القانون".

"حسنا، وبما أنه يعول على أن يبدى القضاة الرحمة ... لا تقتلنا".

فما كان من الضابط إلا أن أطلق ضحكة كأنها كانت إجابته. لقد كان مرتديا شارة "الصليب المعقوف" – شعار النازية – إلا أنه كان من مدرسة "بروسيا" القديمة. أما الرجلان فكانا أسيريه وتلك مسئوليته. وإنفاذا للواجب المقيد به، أرسل الرجل أسيريه إلى الصفوف الخلفية كي يتم التعامل معهما.

مثّل استسلام "سلطان" صورة مصغرة للانهيار المدوى للجيش الأحمر إذ استسلم ثلاثة ملايين جندى سوفييتى أمام الألمان[5]. إن الجنود السوفييت – أولئك الذين انهارت معنوياتهم جراء رعب الحكم الستالينى الدموى – كانوا يستسلمون بالجملة فى أفواج تلتها أفواج. إذ ذهب عديد منهم إلى أن النازيين لن يكونوا، بحال، أكثر سوءا من الشيوعيين. كذا، فإن الأقليات غير الروسية بالاتحاد السوفييتى كانت، على وجه الخصوص، غير متحمسة ألبتة للقضية الروسية. فوفقا لتلك الأقليات، فما الاتحاد السوفييتى إلا "نسخة" أكثر وحشية من الإمبراطورية القيصرية الغابرة[6]. فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر توسعت روسيا جنوبا وشرقا، وحين تم عزل القيصر الروسى الأخير، نيقولا الثانى، على يد البلاشفة عام ١٩١٧، كان ما يقرب من نصف تعداد البلاد مكونا من عناصر "غير روسية".

كان الاتحاد السوفييتى قد ورث عن روسيا القيصرية إقليمين كبيرين كان الروس فيهما فى عداد الأقليات ألا وهما إقليم "آسيا الوسطى"، وإقليم "القوقاز". أما آسيا الوسطى فكانت تشمل قازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وتركمانستان، وأوزبكستان. وكان الإقليم يعرف، آنذاك، بإقليم تركستان ... إقليم مسلم تتحدث شعوبه العديدة صنوفا من لهجات تركية، وتضم أرجاؤه شعوبا "رُحّلا" ومدنا عظيمة مثل "سمرقند" و"طشقند". ولم يكن الإقليم ذا جاذبية للنازيين إذ كان بعيدا عن ساحات القتال.

أما إقليم القوقاز فيقع قريبا من مصالح "النازية"، وهو الموطن الأسطورى للشعب القوقازى. كذا، فالإقليم يحظى بأهمية فى الثقافة الشعبية النازية ... فهو إقليم الأساطير العجيبة والجبال الحصينة ... تلك العصية على من رام لها اختراقا. وتذهب الأقاويل إلى أن إقليم القوقاز هو مهبط النبى "نوح" بعد انحسار الطوفان، وذلك على جبل "أرارات"، فيما عده الإغريق أحد أعمدة العالم، فجباله تمسك السماوات من أن تهوي ... تلك الجبال التى تنتهى إلى حدودها الحضارات. أما من الوجهة الجغرافية، فكانت جبال القوقاز تعد الخط الفاصل ما بين أوروبا والشرق الأوسط.

وفوق ذلك، كان القوقاز إقليما لم تُخضِعه "موسكو" ألبتة، إقليما ينطوى على "فسيفساءات ديموغرافية". فالقوقاز الجنوبى ينقسم إلى قطاعات ثلاثة: جورجيا وأرمينيا المسيحيتين، وأذربيجان المسلمة. أما القوقاز الشمالى فغالبية سكانه من المسلمين، وتنتشر فى ربوعه شعوب صغيرة ولكنها مستقلة ... الداغستانيون[٧]، والكاليك[٨]، والشيشان[٩]، والأوسيتيون[١٠].

إن الأطماع النازية كانت واضحة جلية. فمدينتا "باكو" الأذربيجانية، و"غروزنى" الشيشانية كانتا مركزين هامين لإنتاج النفط ... وكانت ألمانيا تخطط للاستيلاء على آبار النفط بالمدينتين، وذلك لإمداد "الرايخ" بحاجته من البترول. بيد أنه خلافا لأقاليم عديدة فى الاتحاد السوفييتى، لم يدرَج "القوقاز" كإقليم استهدفه الغزو الألمانى ... الأمر الذى أتاح لأولئك الألمان الظهور بمظهر "المحررين" أو "المخلّصين"!! - حيث نظر إليهم كثير من أهالى الإقليم على أنهم كذلك. فحتى لو كان الأهالى يتشككون بشأن نيات "النازى" المضمرة، إلا أنهم كانوا فرحين بأن قيض لهم من يقف فى وجه مستعبديهم الذين ساموهم الخسف.

لقد أعطت ردة الفعل المحلية تلك لمحة عن هشاشة النظام السوفييتي ... ذلك النظام الذى بدت دعائمه وكأنها خشب مسندة - وهو الأمر الذى ستسفر عنه الأحداث واضحا جليا حين انهيار الاتحاد السوفييتي بعد عدة عقود من آنذاك. ففى مستهل تسعينيات القرن العشرين، تشظى هذان الإقليمان ذوا الأغلبية العددية المسلمة إلى العديد من البلدان المستقلة. كذا، فخلال الحرب الكونية الثانية، حدث انقسام مشابه بين صفوف أفراد شعروا بولاء تجاه دينهم وأوطانهم الأم بأكثر من ولائهم "للإمبراطورية السوفييتية". إذا، فقد كان هناك مئات الآلاف من الرجال من أمثال "غريب سلطان": تتر، وجورجيين، وشيشان، وقازاخستانيون، وأوزبك ... رجال كان جلهم من المسلمين الذين ابتهج سوادهم بالقتال ضد الاتحاد السوفييتي.

حينذاك، وفى مدينة ميونيخ الألمانية، ستعمد مجموعة من مناهضى الشيوعية المستشعرين مرارة طعمتها إلى الاجتماع بالمدينة ... تلك المجموعة التى ستَضْحى ذات أهمية للغرب. وكمجموعة نظمت صفوفها ودربت كوادرها من قبل النازيين إبان الحرب، فقد اعتُبرت، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ذخيرة وقوة فى الجهود الرامية إلى مناهضة الشيوعية ودحرها. كذا، فقد وُضِع للإسلاميين أدوار ومهام، إذ أضحى أولئك الذين انتظمتهم عقيدة واحدة أداة من أدوات الغرب فى تصديه للشيوعية للحد من غلوائها. إلا أنهم، إبان الحرب، كانوا جماعة رجال - أو بالأحرى فتيان - يفتقرون إلى التنظيم وتنقصهم الدربة والمران. أما "سلطان" فقد أُرسِل إلى معسكر لأسرى الحرب خصص للمتعلمين من السجناء السوفييت ... هنالك، فطن الألمان إلى أنهم يملكون سلاحا ذا مضاء.

فى تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١، قام رجل من الأوزبك يدعى "ولى قيوم عليم خان"[١١] بزيارة معسكر لأسرى الحرب من المسلمين فى مقاطعة "بروسيا" الشرقية

بألمانيا ... كان المعسكر ذا أجواء مرعبة وأحوال مقبضة، إذ كان التيفوس فاشيا والسجناء قاب قوسين أو أدنى من الموت، إذ كان جميعهم يحتضرون احتضارا بطيئا. كذا، فقد تملكتهم الحسرة وشملهم الذهول جراء قيام فرق التصفية النازية بالإجهاز على الآلاف من رفاقهم ... وفى تلك الأجواء الخانقة، جال بخلد جندى أوزبكى شاب سؤال مفاده: "كم يلزم من وقت كى يلقى المرء حتفه؟!"[١٢]

كان "ولى قيوم" يرافقه قائد ألمانى برتبة لواء، ذلك اللواء الذى أثار ذهول الأسرى حين تحدث إليهم بالأوزبكية متعهدا بالعمل على تحسين الأحوال المحيطة. تلا ذلك قيام "ولى قيوم" بتوجيه خطابه إلى الأسرى قائلاً:

"إننى من الأوزبك ... اسمى ولى قيوم خان، ولدت فى طشقند، وقدمت ألمانيا عام ١٩٢٢ حين التمست الحكومة السوفييتية يد العون للتحكم فى تركستان، وأرسلتْ أناسا من مواطنيها ليتلقوا تعليما فى ألمانيا. أما أنا فقد قررت البقاء فى ألمانيا والانضمام إلى تنظيم سياسى أسس لتحرير تركستان من قبضة الحكم الروسى ... ولسوف تسمعون منى فى القريب العاجل بعض الأخبار السارة".

ولقد أوفى "قيوم خان" بتعهده للأسرى. فخلال أسبوعين فقط أعقبا حديثه إليهم، تحسنت الأحوال فى المعسكر تحسنا كبيرا ... فقد أضحى الطعام متاحا بوفرة، كذا فقد صارت الرعاية الطبية فى متناول من يحتاج إليها. ثم أعقب ذلك قيام الألمان بانتقاء الأسرى المتعلمين، دون غيرهم، وإرسالهم إلى معسكر حربى ألمانى إلى الجنوب من برلين حيث تم تدريبهم فيه على استخدام الأسلحة الألمانية، وتفكيك البنادق اليدوية وتنظيف أجزائها، وكذا الأمر فيما يخص البنادق الآلية ومدافع الهاون. ولعل الأمر الأكثر أهمية، قيام المهاجرين من أمثال "ولى قيوم" بتثقيفهم سياسيا من خلال دروس التاريخ ... التاريخ، ذلك المجهول الذى كانت

الكثرة من الجنود السوفييت الفتيان جاهلة به. وفى أثناء دروس التاريخ تلك، علم أولئك الفتية أن مواطنهم الأم لها تاريخ تليد يدعو إلى الفخار والتيه ... مواطن يمكن أن تُبعث كَرّة أخرى كانبعاث طائر الفينيق من الرماد ... إذا تم تحريرها من قبضة الحكم السوفييتى الشمولى وسطوته.

وبحلول تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤١، تم دمج أولئك الأسرى المنتقين مع الأسرى السوفييت المسلمين - وقوامهم ١٢٠٠ أسير - الذين بقوا فى معسكر أسرى الحرب. وقد عمت الأجواء مظاهر احتفالية ابتهاجية، وإن مُزِجت ببعض خوف إذ تبين للأسرى أنه قد تم إعدادهم لقتال السوفييت. أجل ... إن جميعهم يمقتون السوفييت، بيد أنها لصدمة كبيرة أن يحدث تحول جذرى فى الوجهة إذ توجب عليهم، عندها، التعاون مع أعداء الأمس - الألمان - ومن ثم خيانتهم موسكو ... لقد كانت تلك نقطة اللاعودة.

كذا، فقد تحدث أوزبكى آخر إلى أولئك الأسرى ... مدرس يدعى "باى ميرزا هاييت"[١٣]، تم أسره بواسطة الألمان الذين عينوه "ضابط اتصال" بالقيادة الألمانية العليا فى برلين وشرق بروسيا ... ووفقاً له، فإنه كان يجب على أولئك الأسرى النظر لأنفسهم باعتبارهم "جيشا للتحرير" ... لذا، فقد خاطبهم بقوله: "إنكم دعامة الفيالق الشرقية وركيزتها، وسيجىء اليوم الذى تتحرر فيه البلدان الشرقية ... يومها ستضحون أنتم العمود الفقرى لتلك البلدان وحجر الزاوية فيها."

أما مخاوف الأسرى فقد تبددت واستحالت بهجة وحبورا. وجاء الشهر التالى ليعطيهم الألمان الزى الخاص بالجيش الألمانى، إلا أنه كان لا يشتمل دعامة الكتف المقواة epaulette. فى المقابل، أُعطى الجنود شارةً أمضى ... شارة للساعد نقش عليها رسم لمزار "شاه زندة"[١٤]، وكتب عليها - بالتركية - Biz Alla Bilen - أى "الله معنا".

لقد كان تدريب الجنود جزءا من خطة حربية أطلق عليها اسم Operation Tiger B – أو "النمر ٢" نسبة إلى إطلاق اسم "النمر البنغالي" أو "النمر الملكي" على نوع من دبابات استخدمت في هجمات تلك الخطة الحربية ... تلك الخطة التي ربطها "ولي قيوم خان" رباطا وثيقا مع وحدة الاستخبارات Abwehr التابعة للجيش الألماني. وعلى الرغم من أن معتنقي النظريات النازية العنصرية يعتبرون كل "آسيوي" أو "سلافي" أدنى عرقيا، إلا أن الكثيرين من الألمان كانوا حريصين على إرساء تحالفات مع أسرى الحرب هؤلاء. وبالفعل، فقد نظم الألمان – حينذاك – تشكيلات من "القوزاق"[١٥]، حيث كانت خطة "النمر ٢" ضربا من ذلك التوجه.

وفي مطلع عام ١٩٤٢، أرسل الجنود إلى الجبهة الواقعة غرب ستالينغراد ... وهناك أبلوا بلاء حسنا حيث كانوا ردفا للدبابات الألمانية في المعركة.كذا، فقد قاموا بمهاجمة القوات السوفييتية ووضعها بين شقي الرحى ضمن هجمة انضوى تحت لوائها مئات من السجناء السوفييت. هذا، وقد اعتُبرت عملية "النمر ٢" ضربة ناجحة، ومن ثم فقد تم تبني فكرة الاستعانة بوحدات ذوات أغلبية مسلمة.

شاركت أقليات سوفييتية أخرى في صفوف الجيش الألماني، إلا أن المسلمين قد كانت لهم سمة مميزة ... إذ إن انتماءهم إلى الاتحاد السوفييتي كان هشا واهيا. فحين طفقت أولى أفواج السجناء السوفييت المسلمين ترد وعمد الألمان إلى التحري عن مشاربهم وانتماءاتهم ... فإن كثيرا منهم لم يربط هويته بكونه قازاخستانيا أو داغستانيا أو عضوا من أعضاء جماعة إثنية أخرى، ناهيك عن كونهم من السوفييت، لقد صرح كل منهم – بالمقابل – بكونه مسلما، وهو الأمر الذي أكسبهم اهتماما خاصا من لدن الألمان ... إذا، فنحن بصدد رجال يقاتلون لأجل عقيدة قد تتعارض بالكلية مع "الشيوعية" ... فكلاهما يقع على طرفي نقيض.

أما فكرة "الوحدات المسلمة" فقد دفع بها ضابطان تركيان ... هما اللواء على فؤاد اردين، واللواء حسين حسنى أمير اركيلت[١٦] . ورغما عن التزام تركيا الحياد أثناء الحرب، إلا أن اللواءين قد ارتحلا إلى برلين حيث حاولا التأثير على بعض كبار القادة العسكريين الألمان من أجل معاملة الجنود من ذوى الإثنيات التركية معاملة أفضل. وسرعان ما عمد الجيش الألمانى إلى تمديد نطاق عملية "النمر ٢" لتضحى وحدة منتظمة هى "الكتيبة ٤٥٠ مشاة"، والتى كان جل قوامها من الضباط والجنود ذوى الإثنية التركية. كذا، فقد أعقب ذلك إرساء ثلاثة فيالق إضافية.

ولم تكن "الوحدات المسلمة" وحدات الصفوة ... إذ تراوحت الروح المعنوية لأفرادها بين صعود وهبوط، وإن ظلت مرتفعة فى أغلب الأحوال ... إلا أنها تدنت حين أزيح الألمان عن المناطق المسلمة. وقد كان الجنود بتلك الوحدات قليلى العتاد. فعلى سبيل المثال، كانت إحدى الوحدات، وقوامها تسعون ألف جندى، مزودة بأربعة آلاف بندقية آلية أو أكثر قليلا إلى جانب ثلاثة آلاف منصة قذائف، وثلاثمائة قذيفة مدفعية. كذا فقد افتقرت الوحدة إلى الدبابات ومدافع "الهاوتسر". وكانت مهمتها الأساسية تتمثل فى محاربة الأعداء والدفاع عن خطوط الإمداد.

وفى هذا الصدد، تبقى الأعداد ذات دلالة وإشارات. فمع نهاية عام ١٩٤٢، كان قرابة مائة وخمسين ألفا من الأتراك (الإثنيات التركية) والقوقاز والقوزاق يقاتلون ضمن صفوف الجيش الألمانى. وعلى مدار سنى الحرب، كان ثمة مليون مواطن سوفييتى - على وجه التقريب - ينتمون إلى معتقدات وإثنيات متباينة منخرطين فى خدمة الألمان، جلهم فى مهام غير حربية. هذا، وقد تنوعت التقديرات فى هذا الخصوص، ولعل التقدير الأقرب تطابقا مع الواقع هو ذلك الذى يذهب إلى كون عدد المسلمين ربع مليون فرد انخرط سوادهم فى أدوار ومهام حربية.

لقد كان تفضيل المسلمين أمرا جليا منذ البداية. ففى آذار/ مارس ١٩٤٢، أصدر الجيش الألمانى مرسوما أتيح بمقتضاه للأقليات السوفييتية أن تنخرط فى الخدمة بالوحدات المسلحة للشرطة وقطاعات مجابهة الاعتداءات. إلا أنه كان محظورا على تلك الوحدات أن تؤدى مهاما على جبهة القتال، أو أن تحوز أسلحة ثقيلة. وكان الاستثناء الأوحد خاصا بالإثنيات التركية ... تلك الإثنيات التى نالت قدرا كبيرا من ثقة أهلتها لقتال السوفييت.

بل لقد كان هتلر ذاته يعضد تلك السياسات ويدعمها، إذ يبدو أنه كان مفتتنا بالمسلمين، ولعل ذلك يعزى - فى الأغلب - إلى كون الديكتاتور النمساوى المولد قد تعامل مع "مسلمين" فى الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، أو لكون تركيا إحدى القوى المركزية إبان الحرب الكونية الأولى، والتى شهدها هتلر وقاتل فيها. كذا، تبقى حقيقة أن المسلمين كانوا يسيطرون على بعض البقاع التى رغب الألمان فى احتلالها. وعلى أية حال، فقد بارك هتلر بقوة الإفادة من المسلمين واستخدامهم فى تحقيق المآرب الألمانية. فخلال عام ١٩٤٢، صرح هتلر أثناء حوار دار فى مقر القيادة العسكرية الألمانية أنه "يعتبر المسلمين، فحسب، مأمونى الجانب فيما لا يأمن غائلة من عداهم". هذا، وقد عمد هتلر إلى التشديد على القيادة العسكرية بتوخى الحذر حين القيام بتشكيل وحدات عسكرية من أشخاص تم استهدافهم، إلا أنه قد سمح باستثناء وحيد تمثل فى قوله: "إننى لا أرى أية مخاطرة أو مجازفة إذا تم تشكيل وحدات عسكرية يكون قوامها من المسلمين ليس إلا".

وسرعان ما احتاجت "أسراب الدفاع"[١٧] Schutzstaffel إلى قوات عسكرية غير ألمانية. وحين شكلت الكتيبة ٤٥٠ مشاة ووحدات أخرى مجتمعة وحدة بذاتها عام ١٩٤٣، عمدت "أسراب الدفاع" إلى الاستحواذ عليها وإعادة تسميتها لتصبح "سلاح الشرق التركستانى". وقد قامت الوحدة بالقتال فى أوكرانيا واليونان

وإيطاليا، وأضحت "سيئة السمعة" لما لحقها من عار جراء مشاركتها فى إخماد "انتفاضة وارسو" عام ١٨١٩٤٤.

أما "غريب سلطان"، فما أن أُرسل من الجبهة إلى معسكر لأسرى الحرب حتى وفد إلى المعسكر فريق للتحقيق قادم من برلين. وكان على رأس الفريق "هاينتس اونغلاوبه" – محام ألمانى مغرم بلغة التتر وثقافتهم. وكان "اونغلاوبه" قد جند فى الجيش الألمانى، إلا أن القادة ارتأوا أن علمه لذو نفع أكبر فى موقع آخر. لذا، فقد أرسل للعمل فى وزارة الرايخ للأقاليم الشرقية المحتلة (الأوستمنستريوم) Ostministrium، وعهد إليه بتولى مهام مكتب الاتصال التترى.

وسرعان ما لفت "سلطان" انتباه "اونغلاوبه" ... فهنا شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين بعد، يتحدث الألمانية ويبغض السوفييت. إذا، فهو نواة حليف جيد. وهنا ... أخرجه "اونغلاوبه" من الصف للحديث إليه، حيث سأله كيف تعلم الألمانية وكذا رأيه فى "الروس" ... عندها عزم سلطان على استعراض "لسانه الألمانى" بسرد شذرات من تاريخ عائلته.

"لقد تعلمت الألمانية لأن أحد أقربائى البعيدين قد تزوج امرأة ألمانية".

"مثير"، أردف اونغلاوبه

وهنا استشعر "سلطان" عدم اهتمام اونغلاوبه بما قاله، بيد أنه استأنف حديثه.

"إن أحد أقرباء أمى البعيدين تزوج امرأة ألمانية عملت كممرضة أثناء الحرب الكونية الأولى حيث قامت بتمريضه والاعتناء بشأنه، ونشأ بينهما حب كلاه بالزواج".

"مثير".

"لقد كانت الزوجة تحمل لقبا غريبا".

وهنا أرهف اونغلاوبه السمع، : "ما اللقب؟"

"فون منده".

إنه اللقب ذاته الذى يحمله رئيس اونغلاوبه فى العمل. أما "سلطان" فقد اختير ليؤدى مهاما أرفع شأنا من مهمته المتواضعة بإحدى "الوحدات المسلمة". أعقب ذلك مباشرة أن أرسل فى قطار إلى برلين حيث كانت الوجهة: "الأوستمنستريوم" ... للقاء غرهارد فون منده – مهندس "تجنيد المسلمين" لحساب ألمانيا النازية.